(٣)

إعجاز القرآن فى ثباته

القرآن الكريم كلام الله المعجز لخلقه من إنس وجان فى أسلوبه وبيانه، وفى لغته وآدابه، وفى قصصه وشريعته، وفى حكمه وهدايته، وفى أوامره ونواهيه كيف لا؟ وهو كلام الله أنزله على سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات الى النور، ومن الجهالة إلى العلم، ومن التنافر والشقاق إلى الألفة والوداد وليهديهم إلى طريق الحق وطريق الرشاد.

نزل القرآن الكريم على النبى الأمى بلسان عربى مبين متحديا العالم كله بأن يأتوا بمثله أن استطاعوا حتى إذا عجزوا قال بل سورة حتى إذا عجزوا قال بل آية فيعجزون ويقولون واليأس يملأ قلوبهم.

لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ (فصلت ٢٦)

وكانوا إذا سمعوا القرآن نظر بعضهم الى بعض قائلين هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون.

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ (سورة التوبة ١٢٤ ـ ١٢٥)

تحامل العلماء على القرآن وقاموا بحملة كبيرة فى عصرنا هذا، عصر العلم والمعرفة، عصر الكهرباء والراديو والتليفزيون، عصر الصواريخ وسفن الفضاء، وصفوا القرآن بالجمود، وعابوا عليه الثبات، وأخذوا عليه الاستقرار. ولكنهم لو فكروا قليلا ونظروا إليه نظرة خالية من الحقد والضغينة، لا يفسدها تعصب أعمى أو غل مستقر فى الصدور، نظرة بريئة لا يشوبها غرور العلم أو الشعور بالحقد والتعالى بما وصل إليه العلم من رقى وتقدم لوجدوا فى هذا الجمود قوة ولرأوا هذا الثبات معجزة، وفى ذلك الاستقرار دليلا على أنه ممن خلق الأرض والسموات العلى، الرحمن على العرش استوى، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينها وما تحت الثرى. ولعرفوا أنه رغم ذلك الجمود، وذلك الاستقرار، وهذا الثبات يسير مع كل زمان ويساير كل عصر. فهو ثابت أبدا يزداد مع مرور الزمان قوة ومع تغير الأيام عزة ورفعة ومع تقدم العلم إعجازاً كيف لا. وهو مع ثباته يسير دوما مع الرقى العلمى، يتفق مع الحقائق الكونية والاجتماعية. فإذا علمنا ذلك وأدركناه علمنا أنه كلام الله المنزل، كان فى علمه جلت قدرته قبل كل الأزمة فهو يحويها كلها، ويتسع لها كلها فهو يسير معها يصاحب ما يأتى به العلم من تقدم ومعرفة. يجمع الماضى البعيد بالحاضر القريب يفسره علم اليوم ويؤيد ما سيكشف عنه البحث فى الغد. وفى هذا دليل على القوة والإعجاز. وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفسر من القرآن إلا القليل وكلامه وحى يوحى فكان صلوات الله عليه يبين ما فى كتاب الله من أوامر ونواهى ويشرح ما فيه من شعائر وشرائع عملا بقوله تعالى:

وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (النحل ٤٤)

وما بقى بعد ذلك تكشفت آياته على مر الأيام عما تحتويه من معجزات تشهد بأنه تنزيل من رب العالمين آيات بينات فى صدور الذين أتوا العلم وتكفل سبحانه وتعالى بحفظه حيث يقول:

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ (الحجر ٩)

والعلم مهما كان جزء من الوجود فهو جزء من كل مما وراء الكل. وكما نعرف من تاريخ العلوم أن الإستقرار والثبات لا يلازمان العلم بأى حال من الأحوال. فما هو علم اليوم هو فى الغد القريب بعيد عن الصواب وما هو حقيقة نراها اليوم فهو فى الغد القريب يصبح شكا وتخمينا.

ولذلك قد احتاط كثير من العلماء ومنهم المرحوم الأستاذ الدكتور محمد ولى يوضح كلمة «كأن» أمام كل حقيقة علمية دفعا للشبهة واحتياطا لما قد يكشف عنه الغد من حقائق. فلو أننا وضعنا كل ذلك أمام أعيننا لوجدنا فى مسايرة القرآن الكريم لكل زمان ومطابقته لكل تقدم علمى إعجاز وأى إعجاز ولعرفنا أنه لحق تنزيل من حكيم خبير، وأنه فطرة الله التى فطر الناس عليها.

هذا القرآن الكريم الذى استطاع أن يخلق من الأمة العربية فى وقت قصير خير أمة أخرجت للناس فأرتقت إلى ذروة المجد وامتدت حضارتها وفتوحاتها الى الشرق والغرب وأصبح فيها العلماء الذين ارتقوا إلى ذروة العلم فكان فيهم الفقيه والأديب والشاعر والمؤرخ والطبيب والمفكر فى ملكوت السموات والأرض، ويبحث فيما على الأرض وما تحت الأرض، وهكذا ارتقت الأمة العربية وأصبحت متحضرة قوية يأخذ عنها العالم المدنية وتنقل عنها أوروبا الحضارة وتتعلم منها العلم.

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن القرآن الكريم ليس بكتاب طبيعة أو كيمياء أو كتاب فى علم الحيوان أو فى علم النبات، وما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ليكون كذلك، ولكنه كتاب من عند الله أتى بأصول وقواعد عامة تشير الى سنن طبيعية تدفع الإنسان إلى البحث والدراسة فى الكون وما فيه وما عليه كما قال سبحانه وتعالى فى سورة فصلت:

سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ (فصلت ٥٣)

وفى سورة الروم يقول سبحانه وتعالى:

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ (الروم ٢٠-٢٧)

ويقول جلت قدرته فى سورة يس:

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ

نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

(سورة يس ٣٣ ـ ٤٤)

هذا قليل من كثير مما حدثنا به القرآن الكريم عن الكون ونظامه وقدرة الله وجمال مخلوقاته فإذا بالإنسان ينتقل من النظرة السطحية إلى النظرة العميقة، وينتقل من الظاهرة الطبيعية إلى الدرس والبحث، ومن جمال الكون إلى كمال الخالق، ومن دقة الصنعة إلى عظمة الصانع.

وإذا كان من صفات العالم العصرى الرغبة فى الدراسة والمعرفة فإن القرآن الكريم يقول للإنسان فى سورة طه:

وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾

ويقول أيضا فى سورة الكهف:

قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾

(الكهف ١٠٩)

والأمثلة على جهل الإنسان كثيرة وليس أدل على جهله وعجزه وقلة حيلته وعجز حواسه وقصورها عن إدراك الحقيقة الملموسة المتفق عليها. فتلك العين التى تنظر الى الشمس فتراها قرصا صغيرا مع علمنا بأنها أكبر من الأرض مرات ومرات. وننظر الى الظل فنراه ساكنا ثابتا وهو فى الحقيقة فى حركة دائمة. وتلك الأذن التى لا نستطيع أن تدرك أو تسمع ما فى الهواء من أصوات وأنغام يحملها الأثير إلى كل مكان يستطيع جهاز الراديو الصغير أن يلتقطها ويسمعنا إياها. فإذا هدأت الحركة ونامت الكائنات وعم الكون السكون التام والهدوء الشامل قال الراديو إن ما تحسونه وهم وسراب فالأصوات تملأ الجو والغناء يعلو من كل حدب وصوب والضوضاء منتشرة فى كل مكان فأسمعونى أصدقكم القول.

أما حاسة اللمس فكثيرا ما تخطئ ولعل أكثرنا يذكر تلك التجربة البسيطة التى يعرفها الطالب العادى، وهى أننا إذا وضعنا يدا فى ماء بارد واليد الأخرى فى ماء ساخن ثم وضعنا الاثنين بعد ذلك فى ماء وسط بين الإثنين أحست الأولى بأنه ساخن وأحست الأخرى بأنه بارد. والماء واحد والشخص واحد. ويقول زئبق الترمومتر أن اليد الأولى مخطئة والثانية مخطئة أيضا بالماء وسط بين الإثنين.

وهكذا كل حاسة من الحواس تخطئ ويظن صاحبها أنها على صواب.

ليس هذا هو كل شئ بل إن حكمنا على الأشياء بإختلاف استعداد تلك الحواس. ولنضرب بذلك مثل بسيطا هو مصباح الكهرباء المتقد. رآه مبصر فقال أنه نور وضياء ولمسه أعمى فقال أنه جسم ساخن إنه نار ويقول الذى عنده علم أنها الكهرباء. ولو سألناه ما هى هذه الكهرباء لحدثنا كثيرا عنها مبتعدا كل البعد عن كنهها وماهيتها لا لشئ إلا لأنه يعجز عن إدراك ذلك السر فالعلم لا يعرف عن الكهرباء أكثر مما تحدثه من نتائج وعند ذلك ندرك قوله سبحانه وتعالى:

سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ (فصلت ٥٣)

ويقول جلت قدرته أيضا:

وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ (الإسراء ٨٥)

وبالرغم من كل هذا نرى كثيرا من الناس لا يرون النور فى ضوء النهار ويغمضون عيونهم حتى لا يبهرهم نور الحقيقة يملأ الدنيا، وما فيها ويغلقون قلوبهم حتى لا يدخلها ذلك النور، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

وكثير من الناس، وكثير ما هم، لا يرون طريق الحق رغم وضوحه، وهكذا يعيشون بعيدون عن الحق يسبحون فى بحر من الشك والوهم فلا يسعفهم التفكير، ولا يصل

بهم العقل إلى إدراك سر ذلك الكون العظيم الذى ينطق كل شئ فيه بقدرته سبحانه وتعالى. ويسبح فيه كل شئ بوحدانيته وعظمته ويشير كل شئ فيه إلى تدبيره وحكمته ولكنهم كما يقال فيهم طبع على قلوبهم وعقولهم وعيونهم فهم فى غفلة لا يبصرون ولا يعقلون فلا يرون فى أنفسهم آية، ولا يرون فى الشجر الأخضر آية ولا فى زهره وينعه آية، ولا فى الشمس آية، ولا فى القمر آية، والله سبحانه وتعالى يقول:

وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾

(الذاريات ٢٠ـ٢١)

ويقول سبحانه وتعالى:

سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ (العنكبوت ٢٠)

وأنى لأذكر منذ أعوام مضت وكنت أشرح للطلبة مظهرا من مظاهر الحياة يتمثل فى سريان الدم داخل الأوعية الدموية فى لسان الضفدعة الحية، وكان المنظر رائعا حقا. الكريات الدموية الحمراء والبيضاء تتدافع وتسير داخل الأوردة والشرايين كأى زحام من البشر فى أشد الأوقات زحاما تتزاحم وتتدافع أفراده، وهكذا كانت كل خلية دموية تسير الى هدفها الذى ننشده لتؤدى عملها الذى خصصت له. وكنت أترك الفرصة لكل طالب ليرى عظمة الحياة فى هذا المظهر الرائع من مظاهر الحياة. وإذا بطالب يقبل على مهل بخطوات هادئة بطيئة متزنة جعلنى أتوسم فيه حسن التفكير ورجاحة العقل ثم انحنى على المجهر وطال إنحناؤه فأستبشرت خيرا، وظننت أن ما يراه يبهره ويدهشه. وإذا به يرفع رأسه ناظرا إلىّ بعين متسائلة وهو يقول وماذا فى هذا؟ فقلت يا بنى إنهذا مظهر من مظاهر الحياة لا أريد أن تراه بعينك ولكن أريد أن تراه بقلبك، وأن ما تراه بقلبك، وأن ما تراه العين، ويدركه القلب أكثر بكثير مما تراه العين ولا يدركه القلب.

ثم اختليت بنفسى أحدثها وقلت كم من إنسان كهذا الإنسان يمر على آيات

كثيرة من آيات الله كل صباح وكل مساء، ينظر إلى الدنيا وما فيها ولا يصل الى حقيقة ذلك الوجود الذى هو نفسه جزء منه ولا يدرك حقيقة موجد هذا الوجود والذى بغير قدرته لم يكن لهذه الدنيا، وما فيها، ومن فيها وجود. وكم من إنسان يدب على الأرض ويأكل من خيراتها ويشرب من مائها، ولكنه يقول أنها الطبيعة التى خلقته وأوجدته ونسى أو تناسى، ولم يكلف عقله مشقة التفكير، ولم يكلف نفسه مشقة السؤال من الذى أوجد الطبيعة، ومن الذى أنشأها أول مرة والمثل الشائع يقول أن الله إن لم تكن العين قد رأته فإنه بالعقل قد عرف.

وإن لنا فى إبراهيم عليه السلام أسوة حسنة فقد نظر إلى الدنيا وما فيها. نظر إلى الأرض والماء وتطلع إلى الشمس والقمر وعرف من ذلك أن الله حق فآمن به عن عقيدة راسخة وامتلأ قلبه بنور الإيمان ونور اليقين استمعوا لقوله تعالى:

وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

(الأنعام ٧٥ـ٧٩)

وهكذا يؤمن إبراهيم عليه السلام إيمانا لا لبس فيه. إيمانا بمن خلق الأرض والسموات العلى فآمن بالله وعرف أن لهذا الكون خالق أعظم من الدنيا وما فيها لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار ليس كمثله شئ.

وعندما يؤمن إبراهيم عليه السلام، ويطمئن بإيمانه، ويمتلئ قلبه بنور الإيمان، ونور اليقين فتمتلئ نفسه بالقوة، ويزداد بمعرفة ربه رفعة وعزة فإذا به يقف بين قومه وحيدا فى قوة وعزم يناقشهم فى عبادة الأصنام ويدعوهم إلى عبادة الله عز وجل ويحدثنا

القرآن الكريم عن ذلك فيقول:

* وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾
(الأنبياء ٥١ ـ ٥٦)

وعندئذ ينتقل إبراهيم عليه السلام من المجادلة بالمنطق السليم بعد أن تولى قومه مدبرين ويلجأ إلى عمل لا يلجأ إليه إلا كل مؤمن يعتز بإيمانه قوى بعقيدته فيقول:

* وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾
(الأنبياء ٥٧ ـ ٦٢)

وهنا تسنح الفرصة لإبراهيم عليه السلام فيجد الحجة التى دبر لها قد وضحت والبينة التى خطط لها قد أثمرت فيقول:

قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾
(الأنبياء ٦٢ ـ ٦٧)

ولكن قوم إبراهيم وقد استولت عليهم الكبرياء الكاذبة وأعوزتهم الحجة فلا يجدون وسيلة غير العنف فيقولون:

حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ (الأنبياء ٦٨).

عندئذ تأتى رحمة الله التى تسع كل الوجود وتشمل كل موجود فى ذلك الوجود فيقول سبحانه وتعالى:

يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾

(الأنبياء ٦٩ـ٧١)

وهنا يظهر إيمان إبراهيم عليه السلام فى أقوى صورة فلا يجزع، ويتقبل قضاء الله بعزم وحزم، وهو يعلم علم اليقين أن الله غالب على أمره، وأنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. فتصبح النار بردا وسلاما وينجو إبراهيم من النار. وفى نجاته هذه معجزة وفى خروجه منها سالما معجزة وأى معجزة. ولكنها القلوب التى مرضت تأبى إلا أن تستمر فى غيها وحقدها وجهلها وغضبها فلا يؤمنون ولا يسلمون وتبقى مشكلتهم كما هى وتبقى قلوبهم مغلقة مظلمة لأنهم أبوا أن يستجيبوا لمنطق العقل ومنطق الهداية والإسلام.

وعندما يمتلئ قلب المؤمن بالإيمان فتمتلئ نفسه بنور الإيمان ويمتلئ قلبه بنور اليقين فلا يرى إلا خيرا، ولا يقول إلا خيرا استمعوا إلى إبراهيم عليه السلام وهو يتحدث عن ربه كما يحدثنا القرآن الكريم:

قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾

(الشعراء ٧٥ ـ ٧٩)

وهنا ينتقل عليه السلام الى موضوع آخر ويظهر فى آدب الحديث عن رب العالمين

فيقول:

وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ (الشعراء ٨٠)

ولا يقول وهو يمرضنى وهو يشفين ولكنه يقول فإذا مرضت فهو يشفين ثم يعود مرة أخرى ويقول:

وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ (الشعراء ٨٢)

ولم يقل الذى يغفر لى خطيئتى يوم الدين فيكون قد كتب الغفران لنفسه والغفران حق من حقوق الله إن شاء أنعم به على عباده. ولهذا يقول إبراهيم عليه السلام

وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ (الشعراء ٨٢)

ثم ننتقل إلى درجة أخرى من درجات الإيمان يضرب لنا بها إبراهيم عليه السلام أحسن الأمثال. انظروا اليه وقد رأى فى منامه أن يذبح ابنه اسماعيل الذى رزق به على كبر كما يحدثنا القرآن الكريم:

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾

(إبراهيم ٣٩)

ويقول القرآن الكريم فى آيات أخرى:

رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ

﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ (الصافات ١٠٠ـ١١١).

يا سبحان الله أب يرزق بابن على كبر ثم يرى فى المنام أن يذبح ذلك الابن العزيز الذى كان يتمنى أن يرزق به، ولكنه يصدع بما يؤمر لأن رؤيا الأنبياء حق. ويسير الأب بابنه العزيز ويصدقه القول ويخبره بما هو مقبل عليه فيقول الإبن:

يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾

(الصافات ١٠٣)

ويسير ابراهيم راضيا بقضاء الله ويسير معه ابنه المؤمن والمستسلم لقضاء الله، وهنا يناديه رب العالمين الرحمن الرحيم:

أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾

(الصافات ١٠٧)

وهكذا يعيش المؤمن معتزا بإيمانه قويا بعقيدته.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾

(سورة الحجرات)